حبيبتى الفرنسية سامحها الله

فى عدد سابق من مجلة أكتوبر نشرت مقالة حول رسالة قديمة تاريخها يولية ١٩٣٤ وصلتنى من الأديبة « مى » .. ذكرت فيها أن الوحيد الذى خفق له قلبها وكانت بينهما مراسلات هو « جبران خليل جبران » ، وتمنيت أن تنشر هذه الرسائل .. ذلك أن الذين ادعوا أو يدعى عليهم أن صلة كانت بينهم وبين « مى » كثيرون . ولن يكذب هذا الادعاء إلا رسالة تكون قد كتبتها « مى » بخطها إلى هذا الأديب أو ذاك ..

ولم أكن أعرف بالطبع أن رسائل جبران إليها قد نشرت بالفعل .. إلى أن جاءنى أخيرا كتاب أنيق الطباعة يضم هذه الرسائل ، مع رسالة خطية من ناشرة هذه الرسائل ، بعد أن اجتهدت فى جمعها وتحقيقها .. وهذه الرسالة من الأديبة « سلمى الحفار الكزبرى » كتبت فيها تقول :

« أنا كاتبة سورية من دمشق أقيم فى بيروت ، وقد درجت على حب الأدب والشغف بالعلم . كما أنى من المعجبين بأدب « مى » المقدرين فضلها .. وهكذا اطلعت على مقالتك الأخيرة فى مجلة « أكتوبر » عن « مى » . أما رسالتها إليك فقد زادتنى اعجابا بها .. هلا تتكرم وتجيزنى بنشر رسالتها إليك ضمن مراسلاتها ؟ .. آمل ألا تهمل رسالتى هذه فتبقى بلا جواب كما حدث لرسالة « مى » إليك ، وإن فعلت فلن اعتب ، علك تكون منشغلا برومية أخرى تمجد الجمال فيها .. » .

وها أنذا غير مهمل رسالتك . أرد عليها منشورة غير مرسلة .. لأن النشر لا يكلفنى طابع بريد ، بل يمدنى بأجر النشر . ولعلى بذلك أكون قد بينت لك الفرق بين جبران الذى يرفعك برسالله إلى صفاء السماء ، وبينى الذى ينزل بك إلى مادة الأرض ..

ورسالة « مى » هى ملك لك ولكل من يحبها ويعجب بها ، فلك اذن أن تفعلى بها ما تشائين . وأما الرومية التى تتصورين أن أكون منشغلا بها اليوم فهو ما أضحكنى فى رسالتك .. أهو اليوم يقال لى ذلك ؟ ! ألا ليت الشباب يعود يوما ! .. لقد مضى ما يقرب من نصف قرن منذ انشغلت عن « مى » بالرومية الجميلة التى كانت تنزل « البنسيون » الذى كنت من نزلائه .. ومع ذلك ، فلنفرض انى فيما مضى اتجهت إلى « مى » بكل جوارحى وراسلتها ، فأى نوع من الرسائل كنت اسطر لها ؟ .. إن جبران مؤلف « النبى » كان يخاطبها وكأنهما مخلوقان من أهل الجنة السماوية .. لقد كان بينهما حب . وأى حب ! ..

واسمحى لى أن أنشر هنا فقرات من رسائله إليها .. ليعرف القراء ما كان بينهما . وها هى ذى رسالة منه إليها ، ردا على رسالة منها إليه .. كتب لها فى عام ١٩٢٣ يقول :

« ما أعذب رسالتك فى قلبى . ما أحلاها فى قلبى يا « مى » ! .. ذهبت إلى البرية منذ خمسة أيام ، ولقد صرفت الأيام الخمسة مودعا الخريف الذى أحبه ، ورجعت إلى هذا الوادى منذ ساعتين ، رجعت مثلجا ، مجلدا ، ذلك لأنى قطعت مسافة أطول من تلك المسافة الكائنة بين الناصرة وبشرى فى سيارة مكشوفة .. ولكن .. ولكن رجعت فوجدت رسالتك ، وجدتها فوق رابية من الرسائل ، وأنت تعلمين أن جميع الرسائل تضمحل من أمام عينى عندما أتناول رسالة من صغيرتى المحبوبة ، فجلست وقرأتها مستدفئا بها . ثم أبدلت أثوابى . ثم قرأتها ثانية ، ثم ثالثة ، ثم قرأتها ولم أقرأ شيئا سواها . وأنا لا أمزج الشراب القدسى بعصير آخر .. أنت معى فى هذه الساعة . أنت معى يا مى . أنت هنا ، هنا ، وأنا أحدثك ولكن بأكثر من هذه الكلمات ، أحدث قلبك الكبير بلغة أكبر من هذه اللغة ، وأنا أعلم أنك تسمعين ، أعلم أننا نتفاهم بجلاء ووضوح ، وأعلم أننا أقرب من عرش الله ، هذه الليلة منا فى أى وقت من ماضينا .. أنت أقرب الناس إلى روحى ، وأنت أقرب الناس إلى قلبى .. أحب صغيرتى ، غير أنى لا أدرى بعقلى لماذا أحبها . ولا أريد أن أدرى بعقلى . يكفى أنى أحبها . يكفى أنى أحبها بروحى وقلبى ، يكفى أنى أسند رأسى إلى كتفها كئيبا غريبا مستوحدا فرحا مدهوشا مجذوبا ، يكفى أن سير إلى جانبها نحو قمة الجبل وأن أقول لها بين الأونة والأخرى « أنت رفيقتى ، أنت رفيقتى » .. يقولون لى يا مى إننى من محبى الناس ، ويلومنى بعضهم لأنى أحب جميع الناس ، نعم ، أحب جميع الناس ، أحبهم بدون انتخاب وبدون غربلة ، أحبهم كتلة واحدة ، أحبهم لأنهم من روح الله ، ولكن لكل قلب قبلة خاصة ، لكل قلب وجهة ذاتية يتحول إليها ساعات انفراده ، لكل قلب صومعته يختلى فيها ليجد راحته وتعزيته ، لكل قلب قلب يشتاق إلى الاتصال به ليتمتع بما فى الحياة من البركة والسلامة أو لينسى ما فى الحياة من الألم .. شعرت منذ أعوام بأنى وجدت وجهة قلبى ، وكان شعورى حقيقة بسيطة واضحة جميلة ، لذلك تمردت على القديس توما عندما جاء مشككا مستفحصا . وسوف أتمرد على القديس توما وينتصر القديس توما حتى يتركنا فى خلوتنا السماوية مستسلمين إلى إيماننا السماوى .. ها قد بلغنا ساعة متأخرة من الليل ولم نقل بعد سوى القليل القليل مما تريد أن تقوله . الأفضل أن تتحدث ساكتين حتى الصباح . وعند الصباح ستقف صغيرتى المحبوبة بجانبى أمام أعمالنا الكثيرة . وبعد ذلك ، بعد انقضاء النهار

ومشاكله . سنعود ونجلس أمام هذا الموقد ونتحدث . والآن قرنى جبهتك ، كذا – والله يباركك ، والله يحرسك .

جبران

وفى سنة ١٩٢٤ كتب جبران إلى «مى» رسالة يقول لها فيها :

« . . . تقولين إنك تخافين الحب . لماذا تخافينه يا صغيرتى ؟ . . أتخافين نور الشمس ؟ أتخافين مد البحر ؟ أتخافين طلوع الفجر ؟ أتخافين مجئ الربيع ؟ . . . أنا أعلم أن القليل فى الحب لا يرضيك . كما أعلم أن القليل فى الحب لا يرضينى . أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل . نحن نريد الكثير . نحن نريد كل شئ . نحن نريد الكمال . . لا تخافى الحب يارفيقة قلبى . علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة . . والآن قرنى جبهتك . قرنى جبهتك الحلوة . . والله يباركك والله يحرسك يارفيقة قلبى الحبيبة . . .

جبران

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ أرسل جبران إلى «مى» هذه البرقية :

«كنت غائبا ثم تسلمت رسالتك الكريمة العذبة . لا أستطيع الكتابة بيد مريضة . هذه رسالة محبة وتمنيات طيبة بمناسبة عيد ميلاد مجيد وسنة جديدة مفعمة بالأناشيد» . . . وفى قول جبران إن يده المريضة لا تستطيع الكتابة قد يكون هذا مبدأ مرض موته . . إذ بعد عام واحد من تاريخ تلك البرقية ، أى فى سنة ١٩٣١ مات جبران .

بماذا نسمى هذا الحب بين حبيبين لم يتقابلا قط . . ويفصل بينهما المحيط والبحر بسبعة آلاف ميل ! . .

فى وقت ذلك الحب العظيم بين قلبين عظيمين ، أين كنت أنا ؟ . . كنت فى ذلك الوقت منذ عام ١٩٢٥ فى باريس . . أحب فرنسية وأكتب إليها – سامحها الله – هذه الرسالة :

سيدتى

لم يعد من حقى أن أناديك بوصف آخر . . فمنذ أن عاد إليك حبيب قلبك الحقيقى «هنرى» بعد يأسك من عودته ، ودخل علينا المطعم ، فى تلك الليلة فهمت انا فى الحال ان ساعاتى عندك أمست معدودة . . آه ياسيدتى ! . . لماذا فعلت بى ذلك ؟ . . لماذا لم تخبرينى منذ اللحظة الأولى ، يوم تقابلنا أول مرة ، أنى لست سوى ملهاة لك وتسرية وتعزية فى فترة فراغك من غرامك بحب

جبران خليل جبران .

محبك ؟ ! . لو أنى عرفت هذا الوضع لهان كل هذا . . ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شئ على سبيل الجد . . إن من السهل على عقليتى الشرقية أن تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وانها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة . . لقد كنت أثق من غير شك يخطر لى أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا . وكنت تعرفين أنى إنما أحيا فى مهزلة . . فلماذا تتركينى أحبك ؟ . . لقد هبطت الأرض صافى النفس نقى القلب ، كما هبطها ذلك الاله الهندى «ماهادوفا» فى الأساطير الهندية . لقد نزل إلى الأرض كرجل من الرجال يرقب أعمال البشر بين البشر . فقابل فتاة جميلة وسألها عن أمرها فقالت إنها راقصة من راقصات المعبد ورقصت له ألف رقصة ورقصة ، ثم ركعت أمامه

الآنسة مى زيادة . .

وقدمت له أزهارا . وكشفت له عن قلب نادر نبيل . وعاشا فى سعادة الأرض . الزمن الذى تسمح به سعادة الأرض . .

وذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتا . . فبكته بكاء مرا . وجاء الناس وأحرقوه كما يفعل الهنود بموتاهم . فأسرعت الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه فى اللهب . فأصعدها معه إلى السماء . . تلك قصة الفتاة الشرقية . أما الفتاة الأوروبية اليوم فإنها أعقل من أن تلق بنفسها فى اللهب من أجل الذى تحب . أما من لا تحب فهى تعرف كيف تجعله هو الحطب الذى يلقى به فى اللهب كى ينشر الحرارة فى بيتها المغطى بالجليد . .

لا شك ياسيدتى أن ريحا باردة كانت قد هبت على ما كان بينك وبين حبيبك مسيو «هنرى» وكان قلبك يومئذ فى حاجة إلى الدفء ، وكان ينبغى أن أعرف أن المكان المعد لى إنما هو المدفأة . . وأن هذا الوقود الحى ينبغى أن يبقى حتى يحترق ليدفئ قلبك . . ثم يصبح رمادا وتنتهى مهمته ، فتكنس ذراته وتطرح فى الهواء . . لست أحب ياسيدتى أن اتهمك بالأنانية . ولكنى كنت أود أن تخبرينى بمهمتى حتى أحترق على علم . وأنفع الغير عن رضا . . لا تظنى أنى حانق عليك . . على النقيض . . إن من حقك أن تصنعى بى ما صنعت . . إنما الذى يؤلمنى الآن هو حياتى أنا بعد ذلك . . لقد أسرفت فى الخيال ، فجعلت منك كل جنتى . . إنى أدرك الآن موقف آدم عقب إخراجه من جنة السماء . أتخيله قد مكث بجوار حوائك فى الموضع الذى هبط فيه ، يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء ، ويمسح وجهه بأعتاب النعيم الذى خرج منه . . وبعد فإنى أطلت عليك ، وليس من حقى الآن أن اسلبك وقتك السعيد لتطالعى هذيان شخص تعس . اقرئى خطابى هذا فى ساعة فراغك ، واعتبريه نوعا من لهوك . وهو على كل حال صائر هو أيضا إلى المدفأة . . . »

وهكذا رأيت أن اضع إلى جانب رسائل جبران المكتوبة بندى الحب السماوى ، رسالتى هذه التى تذكرنى بأنى عشت أجمل أعوام حياتى ولم أعرف وجودا للحب الحقيقى . . ولا لقلبين كقلب «جبران» وقلب «مى» . . ولقد مات هو وفى قلبه الصامت حبها ، وماتت هى بعده بسنوات وقلبها غير ممتلئ بأحد غيره . . .

طوبى لكما فى دار «الخلد» يامن قد منا من قلبيكما للبشر قبسا من نور السماء . . .